مشكلة الرسم العراقي المعاصر

بقلم
محمود صبري

مقدمة :

تمر الحركة الفنية في العراق الآن بمرحلة اقل ما يمكن ان توصف به هو انها مرحلة انتقالية قلقة . ففي غمرة التحول الاقتصادي والاجتماعي والفكري الذي يمر به العراق تحاول الحركة الفنية جاهدة تثبيت بعض الاسس والتقاليد لاتجاه يعكس بالشكل والمضمون الاوجه المختلفة لظروف هذا المجتمع .

ويبدو ان انعدام الاستقرار هذا يكمن في جوهر المشكله بالذات، فالقلق الفكري والاجتماعي الفردي والظروف السريعة التبدل والمناقشات والمجادلات الفنية العنيفة والعناصر المندفعة الطموحة ان هي إلا علامات مقنعة لأصول مادية ملائمة لخلق حركة فنية عظيمة .

ففي بغداد، هذه المدينة التاريخية حيث لا يزال الفنانون القدامى على استعداد لسرد تفاصيل الاوضاع التي انبعثت منها اسس الحركة الفنية المعاصرة وحيث لا يزال معظم اولئك الذين ساهموا في خلق هذه الاسس احياء يرزقون – في هذه المدينة بالذات – يندفع نفر قليل من الفنانين ، افراداً وجماعات ، في وجه ظروف صعبة للغاية لتحقيق اهداف يعتقدون بها وبأفضليتها . واذا كانت هناك بوادر مشجعة فعلاً فأنها تنعكس في هذه الاتجاهات العديدة المتضادة التي تبناها مختلف الفنانين ، وفي هذه المناقشات والمجادلات الحادة المتبادلة بينهم. انها دليل على حيوية هذه الحركة ونشاطها.

وبالسرعة نفسها التي سار عليها التحول الاقتصادي والاجتماعي والفكري في العراق ، سار التيار الفني ببطء وهدوء في السنوات الاولى ، ثم بعنف وشدة في السنوات القليلة الماضية فلم تعد المعارض تضم معجبين حياديين فقط.

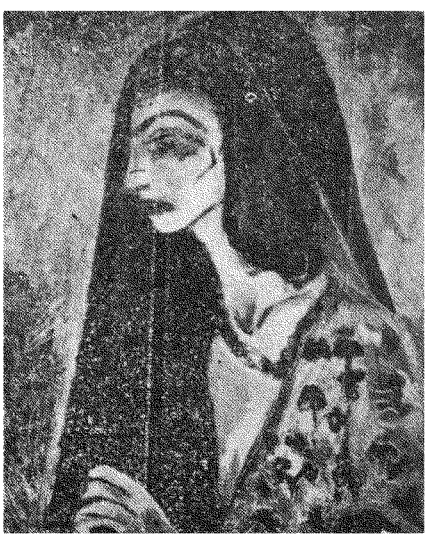

ربيعة – لفاضل عباس

لقد ازداد عدد المتذمرين بشكل ومضمون الفن المعروض ، ولم تعد الغاية هي الكمية والحجم والتقيد الشكلي بالطبيعة، بل اصبحت الغاية النوعية والتركيب والتعبير عن الطبيعة. وهكذا اصبح هناك انصار وخصوم لهذا الفنان اوذاك، واخذت المفاهيم تتبلور ببطء عن مختلف الجماعات الفنية مثبتة بذلك اولى بوادر تكوين الجمهور الفني .

محمود صبري

وضمن الجماعات الفنية نفسها تجد التناقضات ذاتها تعمل في هدوء حيناً وفي عنف حيناً آخر ، مؤثرة في الانتاج العام لكل منها . لقد اضحى هناك نوع من المحاسبة الفنية ، واصبحت لكل جماعة تقريباً تقاليدها العامة والخاصة بها ومفاهيمها عن الفن واهدافه . وباشتداد قسوة الحياة الاجتماعية، اخذت تظهر الاعمال الفنية وهي تعكس مسحة من هذه القسوة الاجتماعية في شكلها ومضمونها . ان مفاهيم الجمال نفسها اخذت تتغير بحيث اصبح هناك من يجد في هذه التعابير القاسية مجالا ومتعة . وتدريجياً اخذت تظهر تزييفات الانعزال الحسي والفكري. ان مجتمعنا مليء حافل بكل شيء ، بالجمال والقبح ، بالهدوء والعنف ، بالبساطة والتعقيد ، بالقسوة والرحمة ، بالوفرة والفاقة . كل هذه المتناقضات قائمة وهي تتجسم يوماً بعد يوم ويصطدم الفنان بها في رواحه ومجيئه ، ولهذا فان اراد ان ينتج شيئاً تنبض فيه الحياة او يعكس بصورة صادقة هذه الاوجه من مجتمعه ، فالمجال يسير امامه . غير ان هذا المجال نفسه مقيد بقيود تفرض عليه ان يختار بتحفظ نوعية المواضيع التي ينبغي له ان يعكسها . فليست هي المصادفة وحدها التي دفعت معظم الفنانين الى الريف لفترة طويلة ولا تزال تدفعهم اليه حتى الان بل ان اتجاههم هذا يعكس عوامل معينة اجتماعية وفكرية لعبت وتلعب دورها في هذا المجال. وبالمثل فان الأتجاهات التجريدية والسريالية تعكس في الوقت نفسه وجود الاحوال المادية والفكرية الملائمة للاهتمام بالشكل دون المضمون، والتهرب من الواقع عند فئات معينة من المجتمع على الاقل ان هذه التناقضات الملاحظة في الحركة الفنية انعكست بوجه خاص في نظرة الفنانين الى طبيعة المشكلة التي وضعوها نصب اعينهم وادت الى تغيير شامل في مفاهيمهم عن عنصرين اساسيين من عناصر الانتاج الفني هما الشكل والمضمون .

صورة فتاة – لعدنان رامسم

تطور الشكل والمضمون

ان الفن كفعالية بشرية يتأثر كباقي الفعاليات البشرية

الاخرى بجملة من العوامل المنبعثة من شكل تكوين المجتمع الذي تنشأ فيه . فاسلوب الانتاج السائد والوسائل الانتاجية المستخدمة ونوعية العلاقات التي تربط مختلف الافراد والفئات وكذلك الافكار والفلسفات والانظمة والمؤسسات الموجودة كل هذه تكون عوامل مؤثرة في نوعية الفن الذي يمكنه ان ينمو ويتطور واتجاهه .

واذن ، فعند بحث الحركة الفنية في العراق ، يجب ان نلح على شكل المجتمع الذي تنمو وتتطور فيه، وبصورة خاصة على العلاقة الموجودة بين التبدلات المادية من جهة والتبدلات الفكرية والذهنية من جهة اخرى ومدى انطباق الثانية على الاولى . اذ قد يحدث – كما هو الان فعلاً – ان تتطور الاهداف التي يضعها الناس نصب اعينهم بصورة اسرع من تطور الحياة الاقتصادية عندما يكون هناك تناقض حاد بين العلاقات الاجتماعية والاقتصادية السائده من جهة ، وبين التغييرات المادية والفكرية من جهة اخرى .

فالشكل السائد للانتاج هو الانتاج الزراعي ، وهو باساليبه البسيطة ونوعية علاقات التملك المرتبطة به ، يقرر شكل النظام السائد وهو الاقطاع. وحتى الى بضع سنوات خلت لم تكن هناك آثار بارزة للتصنيع يمكن ان تشكل مصدراً وافياً لالهام فن صناعي على نطاق ملحوظ، اوتجسم التناقض الذي كان قد بدأ يأخذ سبيله بين اساليب الانتاج القديمة والجديدة ليعكس آثاره في الانتاج الفني والادبي. غير ان التطور الاقتصادي السريع الذي حصل منذ عدة سنوات سبب تطوراً ملاحظاً في الانتاج الفني نتيجة لتغير مفاهيم الفنانين وادراكهم الاجتماعي .

ولقد تغير طابع المعارض الفنية ايضاً لان الجمهور الفني تغير في التركيب والنوعية ، ولان رغبات هذا الجمهور اصبحت متشعبة ومختلفة ، في اوجه عديدة ،عن رغبات رواد المعارض السابقين ، فالى اي حد اثرت هذه العوامل في نفسية الفنان وفي انتاجه ؟

ان الانتاج الفني ، اذا وضعنا جانباً نواحي الاختلاف الاخرى ، هو بضاعة ، وهو بصفته هذه يقوم كباقي البضائع الاخري بسد حاجات ورغبات بشرية معينة ، ولا يهم هنا نوعية الرغبات التي يرضيها سواء اكانت منبعثة من المعدة أم من الخيال .فهو يرضي مجموعة رغبات كالرغبة في الخيال والمتعة

فتاة تتجمل – لحافظ الدروبي

براءة – لطارق مظلوم

فلاحون – لحامد يوسف

واللذة وحتى الرغبة في تقوية المكانة الاجتماعية (كما هو الامر بالنسبة للذين يكتنزون الآثار الفنية مدفوعين برغبة الظهور الاجتماعي) والناس كما يبدو كانوا ولا يزالون على وجه العموم مستعدين لدفع المال لسد مثل هذه الرغبات .

ومن ناحية أخرى ، فان الانتاج الفني ، فضلاً عن كونه بضاعة ، هو في الوقت نفسه تعبير ذاتي لموقف الفنان الاجتماعي وآماله وفلسفته ونظرته في الحياة ، اي لموقف . فئة اجتماعية معينة وآمالها وفلسفتها ؛ فهو اذن اداة اجتماعية ذات تأثير ايجابي .

تصميم – محمود صبري

ان ما تجدر الاشارة اليه هنا بالنسبة للفنان العراقي ، هو انه ليس محترفاً بالمعنى السائد ، اذ هو لا يعيش على فنه فحسب ، فجميع الفنانين يشغلون وظائف تتفاوت في درجة علاقتها بموضوع اهتمامهم ، ولذلك فان مؤثرات السوق تتخذ شكلا آخر في تكييفها لشكل انتاجهم الفني ونوعيته ، ومع ذلك فان تأثيرها يتجسم واضحاً في قسم من انتاج بعض الفنانين القدامى ، فيظهر جلياً اندفاع الفنان في بعض لوحاته للتوصل الى مشكلته الفنية ، وفي البعض الآخر رغبته الواضحة للوصول الى اكياس العملاء . وتحت تأثير هذه العوامل التي مر ذكرها اخذت المعارض العراقية تعكس انتاجاً يختلف في شكله ومضمونه عن اي شيء شهده الجمهور الفني ، سابقاً فكيف حدث هذا التغيير؟

ان الشكل في الفن يتألف من صياغة جملة عناصر متعددة كالالوان والسطوح والخطوط وتنظيمها بتراكيب معينة . الا ان الفنان بصفته كائناً اجتماعياً يستخدم كافة ملكاته العقلية والحسية لدى صياغته لهذه التراكيب ، فالعملية اذن لا تتم بانعزال عن المجتمع بل على العكس بارتباط به . ان الفنان ، اذ يعكس مشاعره واحساساته وافكاره في هذه التراكيب ، انما يعكس – كما اشرنا سابقاً – مشاعر واحساسات وافكار تلك الفئة الاجتماعية التي يرتبط واياها بنوع من المشاركة في هذه الاحساسات والمشاعر . واذن ففي الوقت الذي يصوغ فيه الفنان (شكلا) معيناً فأنه يعرض (مضموناً) معيناً اي ان هناك ارتباطاً بين الشكل والمضمون يشتق خلاله كل منهما كيانه من الآخر بشكل لا يمكن فيه الفصل بينهما . ومن المهم هنا ان لا نخلط بين الموضوع والمضمون . حيث ان لكل صورة (موضوعاً) الا انها تحوي في الوقت نفسه شكلا ومضموناً مشتقين من هذا الموضوع . ويتضح ذلك تماماً عند قيام عدد من الفنانين برسم موضوع واحد فينتجون مضامين مختلفة بل متضادة احياناً اذ ان لكل منهم مفاهيمه وفلسفته وموقفه ووجهة نظره الخاصة .

لقد خلق التطور الاقتصادي والاجتماعي والفكري في العراق مواضيع جديدة وظروفاً جديدة ، كما ادى الى انبعاث

الدبكه اليزيدية – لعطا صبري

دراسة رأس فتاة – لعطا صبري

مفاهيم وفلسفات ومواقف جديدة لدى الناس ومنهم الفنانون. وبديهي ان تنبعث في اوضاع كهذه ضرورة التغيير في الاشكال الفنية القديمة التي لم تعد ملائمة او وافية للتعبير عن التناقضات الجديدة ، والاستعاضة عنها بأشكال اكثر ملاءمة. وهكذا نرى في الفنانين ، افراداً وجماعات ، اندفاعاً في الاتجاهات التعبيرية والتجريدية والتكعيبية والسريالية وفي تجارب شكلية متنوعة لانهم على حد قولهم يرغبون في التوصل الى شيء ! ان هذا الشعور في الواقع ليس الا وجهاً آخر لحقيقة مادية هي ان الاهداف الجديدة التي اخذ الفنانون يضعونها لانفسهم والتي تنعكس عن التطورات الاقتصادية والفكرية والاجتماعية اخذت تتطلب شكلا آخر للتعبير يناسبها . الا ان التناقض يكمن في وجود علاقات اجتماعية سائدة تتصادم والاوضاع المادية الجديدة التي خلقتها هذه التطورات . فاندفاع الفنانين الى الاشكال السريالية والتجريدية والتكعيبية الخ .. ليس بتقليد اعمى للغرب كما يدعي البعض ، بل هو نتاج للظروف التي ذكرناها كمصادر غنية بحلول لمشاكلهم الفنية الانية .

ونتساءل الآن : أين يتجه الفنان العراقي في بحثه عن اشكال جديدة؟ ان لديه آثار البابليين والاشوريين ، ولكن هل تكون اشكالها المعبرة عن مجتمعات كالمجتمعات الاشورية والبابلية ببساطة اساليبها الانتاجية واستقرارها وبطء تطورها وانظمتها الاستبدادية الكهنوتية ومفاهيمها ومعتقداتها الساذجة الاسطورية وافية للتعبير عن مجتمع كالمجتمع العراقي بتطوره السريع وتناقضاته الحادة ومعتقداته ومفاهيمه المعقدة المتشعبة ؟

ام هل يتجه الى آثار الفن الاسلامي بنقوشها وريازتها او التصويرات القليلة المتوارثة في بعض المخطوطات ؟ يبدو انه استثنى ذلك ايضاً فالنقوش والريازة اقرب الى المعمار منها الى التصوير . ولم تتطور بعد في العراق اتجاهات ثابتة للعمارات العامة التي يمتزج فيها فن المعمار والفن التصويري بدرجة تصبح معها مثل هذه الآثار مصدراً للالهام. اما التصويرات القليلة المتوارثة في بعض المخطوطات فأنها ، لندرتها وانعدامها من التداول ، لم تحدث اثراً يذكر في اتجاه الحركة الفنية .

لم يبق امام الفنان العراقي اذن مورد آخر عدا موارد الفن الغربي . وهنا كان عليه ان يختار المرحلة التي يأخذ عنها اشكالها التي تناسبه للتعبير عن ظروفه الخاصة ، وقد كان في اختياره هذا مدفوعاً بجملة عوامل اقتصادية وفكرية . لقد اختار اقرب الآثار اليه ، آثار القرنين التاسع عشر والعشرين آثار الحركات الرومانتيكية والانطباعية والتعبيرية والتجريدية والسريالية ، لان الظروف الاقتصادية والفكرية التي خلقت هذه الحركات اخذت تنمو بشكل آخر في تربة العراق مهيئة الاصول المادية اللازمة لانبعاث حركات مماثلة ، فالتطورات الاقتصادية والفكرية الحديثة في العراق هي امتداد لتطورات الحضارة الاوروبية الحديثة ، وان ثقافة معظم الفنانين العراقيين بل جميعهم مشتقة من مصادر غربية تعزز مكانة الفن الاوربي الحديث وتدعو له بكل وسائل الدعاية المتوفرة.

غير ان الفنان اذ يخرج لجمهوره بانتاجه يجد نفسه امام ظروف ابعد من ان تكون ملائمة لتطويره وتنميته . انه يجد نفسه في تناقض حاد مع الجزء المؤثر (اقتصاديا) من الجمهور . ففي الوقت الذي يجد انتاجه الجديد صدى في نفوس اولئك الذين يشعرون معه بالمتطلبات الفنية الجديدة فأن هناك جزءاً مهماً من السوق – من الناحية الاقتصادية – ممن تتناقض رغباتهم واذواقهم مع الاشكال الفنية الجديدة يجدر الاشارة اليه بشيء من التفصيل هنا .

ان انعدام الفعاليات الفنية في الريف العراقي – باستثناء الغناء والرقص الشعبي والصناعات الحرفية اليدوية – بسبب

في القرية – ليتوغراف لاسماعيل الشيخلي

٦٨

الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية السائدة قد حصر الحركة الفنية في نطاق ضيق في المدن الكبيرة وبدرجة رئيسية في بغداد.

الا ان التحديد الموجود فعلا هو اشد في الحقيقة مما قد يبدو لاول وهلة، وهذا يرجع الى عدم وجود تقاليد فنية متوارثة او صالات عرض او متاحف فنية دائمة يمكن ان تخلق رأيا فنيا. فالاهتمام بالفن وتذوقه اصبح بتأثير هذه العوامل محصوراً بين اقلية من المثقفين وبعض الفئات المتنفذة اقتصادياً واجتماعياً. واذا كانت التطورات الاقتصادية والفكرية التي اشرنا اليها قد وسعت في هذا الجمهور فان العناصر التي تعكس التأثير الاقتصادي والاجتماعي في هذا الجمهور بقيت محافظة على اذواقها العامة دون تغيير ملموس، فما هو شكل تذوقها ومجالات تأثيره على تطور الحركة الفنية؟

ان التذوق في الحقيقة هو علاقة بين الفرد وبين موضوع خارجه، وعلى هذا الاساس فان هذه العلاقة تختلف باختلاف الافراد والفئات الاجتماعية. اذ ان هناك عوامل عديدة تؤثر فيها، منها درجة ثقافة الفرد العامة وثقافته الفنية ووجهة نظره وميوله الفكرية الخ.. اما بالنسبة للفئات المتمكنة اقتصادياً فان هناك صفة معينة تنعكس في اذواقها. وهي اتجاهها الثابت لاستهلاك بضائع او خدمات ذات طابع خاص -غير منتج على وجه العموم- كالكماليات والاعمال الفنية وهذا يرجع الى رغبة في تثبيت المكانة الاجتماعية باقتناء كل ما هو نفيس ونادر.

ومن هذه الزاوية بالذات يمكن تحديد شكل التذوق السائد لدى الفئات المتنفذة اقتصادياً واجتماعياً في العراق. فحتى الى عهد قريب كان الذوق السائد متأثراً بالثقافة العثمانية في الملبس والمأكل وطراز المعيشة والبناء والفن الا ان تأثر العراق السريع بالغرب قلب هذه المفاهيم رأساً على عقب وتحول مصدر الالهام الى مظاهر الحياة الغربية. فاتجهت الفئات المتنفذة اقتصادياً الى الاسواق الاوروبية سعيا وراء مقتنيات من الكماليات والاعمال الفنية التي اصبح استيرادها شيئاً مألوفاً.

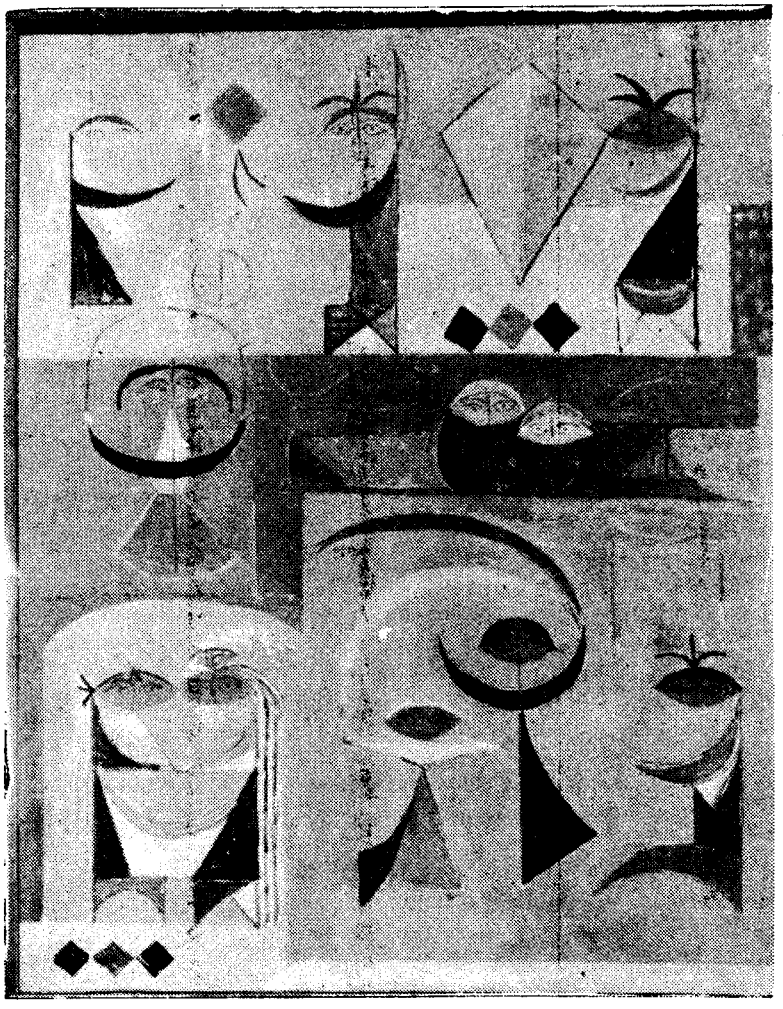

أطفال يلعبون - لجواد سليم

ولهذا السبب بالذات الذي ينعكس في جوهره من فقدان التقاليد الفنية الموروثة الثابتة لم يكن في هذا التحول ما يخفي اي تقدم وارتقاء حقيقيين في مستوى تذوق هذه الفئات بل مجرد تغيير في نوعية المنتجات التي اخذت تكدس وتجمع كبرهان زائف لمكانة اجتماعية او اقتصادية عالية. لقد اصبح مظهراً بارزاً من مظاهر التذوق الفني شراء لوحات فنية لرسام ايطالي من الدرجة الخامسة وحتى العاشرة بدلا من شراء انتاج فنان محلي لان الاولى وافدة رأساً من مصدر الالهام.

فالتأثير على الحركة الفنية من هذه الناحية اذن ايجابي ومعرقل في الوقت نفسه بتحديده للامكانيات المتوفرة في السوق المحلية لتصريف انتاج الفنان العراقي.

تحت تأثير هذه الظروف القاسية المتناقضة يعمل الفنان العراقي جاهداً لخلق تقاليد فنية ثابتة تعكس حقاً الاوضاع والمتطلبات الجديدة المتنامية، واذا جاز لنا ان نحكم على البوادر فاننا نستطيع ان نجزم بكل تفاؤل بأن الاسس المادية اضحت متوفرة فعلا لبناء وتطوير حركة فنية عظيمة.

بغداد — محمود صبري

٦٩